**السنة الثانية ماستر / أ. سامية إدريس**

**أدب عربي حديث ومعاصر المناهج النقدية الغربية**

|  |
| --- |
| **الشكلانية الروسية** |

1. **من هم الشكلانيون الروس:**

تألفت عام 1915 في موسكو جماعة لغوية عرفت باسم "حلقة موسكو اللسانية"، ومن ألمع ممثليها رومان ياكبسون ( 1896 – 1982) الذي كان يومها مهتما بالإثنوغرافيا السلافية وفلسفة اللغة. وقد تعاونت هذه الحلقة مع نظيرة لها تأسست عام 1916 في سان بطرسبورغ اسمها "جماعة دراسة اللغة الشعرية"، وتعرف اختصارا باسم (أوبوياز)، كان معظم أعضائها طلبة في الجامعة،أبرزهم فيكتر شكلوفسكي (1893 – 1984) الذي أصدر منذ عام 1914 كراسا تحت عنوان "انبعاث الكلمة" يعدّ أوّل تأسيس نظري للشكلانية الروسية. وأصدرت (أبوياز) أول مطبوعاتها في عام تأسيسها (1916) ، وهو كتاب صغير، عنوانه "مجموعات حول نظرية اللغة الشعرية. الإصدار الأول"، أعقبه العدد الثاني عام 1917، ثم صدر العدد الثالث عام 1919 تحت عنوان "الشعرية. مجموعة مقالات حول نظرية اللغة الشعرية".

بعد عام 1930 توقف عمل الشكلانيين الروس المنظّم، وغيروا وجهات اهتمامهم الأدبية إلى تأويل النصوص والواقعية الاشتراكية والرواية التاريخية... بينما انتقل جاكبسون إلى براغ في 1920 واسهم في تأسيس حلقة براغ اللغوية في 1926، ثم انتقل إلى الولايات المتحدة الأمريكية أيام الحرب العالمية الثانية.

1. **السياق السياسي والنقدي لظهور الشكلانية:**

ظهرت الشكلانية الروسية في مناخ ثقافي وسياسي عدائي اتجاهها، بسبب سيطرة الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي في العشرينات والثلاثينات على كل مناحي الحياة والثقافة، "حيث ربط مضامين الأعمال الأدبية بأهداف الحزب وإيديولوجيته ومشاريعه، وكان على المنظمات الإبداعية أن تنحلّ أو تنضوي ضمن مؤسسة إبداعية واحدة أو عدد من المؤسسات يؤسسها الحزب تكون تحت إشرافه. الأمر الذي منع المخالفة في حق الحزب الشيوعي أو الإساءة إليه، حتى عد ذلك انحرافا لا بد من القضاء عليه وتصفيته"، وقد كانت طروحات الشكلانيين غير منسجمة مع الدعاوى الإيديولوجية للحزب وهذا ما جعل تروتسكي يقول في كتاب "الأدب والثورة" 1924: ""إذا ما تركنا جانبا الأصداء الضعيفة التي خلّفتها أنظمة ايديولوجية سابقة على الثورة، نجد أن النظرية الوحيدة التي اعترضت الماركسية في روسيا السوفييتية، خلال السنوات الأخيرة، هي النظرية الشكلانية في الفن"؛ وموضع نقد اتهامي تجريمي أطلقة سنة 1930 لوناتشارسكي أول وزير ثقافة سوفيتي، حين وصف الشكلانية بأنها: "تخريب إجرامي ذو طبيعة أيديولوجية".

وعلى الصعيد النقدي، نشأت الشكلانية الروسية في ظل أزمة منهجية في الدراسات الأدبية، أخضعت الأدب لنقد سوسيولوجي ذي أبعاد سياسية إيديولوجية، حيث يصف أحد معاصريهم علم الأدب السائد حينها قائلا: " إذا ما أخذنا مثلا مقالة لأحد علماء الأدب القدماء وجدناها تتضمن تنقيبات في سيكولوجية البطل، ومحاولة للكشف عن صلة بين فكر البطل وتاريخ الفكر الاجتماعي، صلة بين ظروف حياة البطل وظروف حياة عصره واقتصاده الذي تمخض عن هذه الظروف، وما إلى ذلك. وعندما يدلي عالم الأدب بأحكامه حول مجمل هذه الأشياء، فإنه ينساق، تبعا لهذا المنطق، إلى التدخل في مجالات علم النفس والتاريخ والفكر الاجتماعي والسوسيولوجي والاقتصاد السياسي وغيره. ونتيجة لذلك اتخذ علم الأدب صفة موضوع لا ينتج إلا نشرة عن مادةكان بوسع العلوم المذكورة، كل على حدة، أن يحصل عليها بمفرده، موضوع لا يطرح مهام جديدة من أي نوع".

لهذا ركز الشكلانيون من منطلق رفضهم لتدخل العلوم الإنسانية والاجتماعية في الدراسة الأدبية، ركزوا على دراسة الشكل اللغوي الموظف توظيفا خاصا،"باعتبار أن خصوصية الأدب تنبع من تركيبه اللغوي وهذا ما يجب دراسته. ومن الجدير بالذكر أن "الشكلانية" تسمية فرضت عليهم من أعدائهم من باب الازدراء والذم،وقد عبروا عن رغبتهم في استبدالها بتسميات أخرى مثل "المنهج الصرفي"، أو "المنهج المورفولوجي في الدراسة الأدبية كما يتضح ذلك في عنوان كتاب بروب V. Propp الشهير.

1. **وظيفة النقد والناقد الشكلاني:**

تنطلق الشكلانية الروسية من أن مهمة الناقد الأدبي هي أن يواجه الآثار الأدبية نفسها، لا ظروفها الخارجية التي أدت إلى إنتاجها، وتحدد مجال الدراسة الأدبية برفض تدخل العلوم المجاورة لها واعتبارها عوائق مثل علم النفس وعلم الاجتماع والتاريخ الثقافي...الخ.

شدد الشكلانيون على القول باستقلالية العمل الأدبي، بعيدا عن شخصية مؤلفه، وعن الظروف التاريخية التي يكتب فيها، وعن أشكال الوعي الأخرى، وأكدوا أن ما يجب أن ينصب عليه الاهتمام هو : كيف صنع العمل الأدبي؟ وما الأدوات اللغوية والصرفية والتركيبية والإنشائية ...الخ التي جعلته عملا أدبيا؟ يقول جاكبسون: "إن هدف علم الأدب ليس هو الأدب في عمومه، وإنما أدبيته: أي تلك العناصر المحددة التي تجعل منه عملا أدبية". أصبحت مقولة جاكبسون مركز تفكير الشكلانيين الروس لتتجاوز مختلف التصورات القديمة للأدب التي لم تأخذ في الحسبان شرطا أساسيا لانجاز دراسة علمية للأدب. يقول ايخنباوم: "لقد اعتبرنا ولا نزال نعتبر كشرط أساسي أن موضوع العلم الأدبي يجب أن يكون دراسة الخصيصات النوعية للموضوعات الأدبية التي تميزها عن كل مادة أخرى، وهذا باستقلال تام عن كون هذه المادة تستطيع بواسطة بعض ملامحها الثانوية أن تعطي مبرر لاستعمالها في علوم أخرى كموضوع مساعد".

إن الهدف الأساسي للبحث النقدي عند الشكلانيين هو وصف العمليات الوظيفية للنظم الدبية وتحليل عناصرها الرئيسية، والعلاقات بين هذه العناصر. وللقيام بالوصف العلمي للنص الأدبي اختار الشكلانيون أقرب الأنظمة إلى الأدب، وهو النظام اللغوي على أساس أن مادة الأدب تتمثل أولا في اللغة.

**4. منطلقات النقد الشكلاني:**

\* الدعوة إلى استقلالية الأدب، ورفض تدخل العلوم الإنسانية والاجتماعية في الدراسة الأدبية.

\* رفض نظرية الانعكاس، واستقلال الوظيفة الجمالية للعمل الفني عن الوظائف الأخرى الاجتماعية والنفسية.

\* رفض فكرة المضمون، أو المفهوم التقليدي لمضمون العمل الأدبي. يقول أحدهم: " مضمون العمل الأدبي (وروحه أيضا) هو جملة تقنياته الأسلوبية. لا يعدو الشكل أن يكون هو "المضمون متحققا"، فلا إمكانية للفصل بين الشكل والمضمون في العمل الأدبي.

\* تحرر الشكلانيون الروس من التصور التقليدي للعلاقة بين الشكل والمضمون الذي يقوم على اعتبار أن الشكل ليس سوى وعاء يحتوي المضمون، وأحلوّا محلّه فكرتين هما "المادة" من ناحية و"الأداة" أو "الوسيلة" أو "الإجراء" من ناحية أخرى. فالمادة تعني المواد الأولية للأدب التي تكتسب فعالية جمالية، ويتم اختيارها كي تسهم في العمل الأدبي من خلال مجموعة الوسائل والأدوات والإجراءات الخاصة بالخلق الفني أو الإبداع. على هذا فإن الكلمات هي مادة العمل الأدبي نفسه كالأصوات بالنسبة للموسيقي والألوان بالنسبة للرسام. تتعرض الكلمات لانحرافات فنية تبعدهاعن واقعها القديم لتعطيها صورة جديدة، هي "الشكل" بما هو تكامل ديناميكي من مجموع الكلمات يعطي معنى محددا.

**5. مفاهيم شكلانية:**

**أ/ مصطلح التغريب:** استبعد الشكلانيون الروس جميع التعاريف التي تصف الأدب بأنه تعبير أو محاكاة أو مزيج بينهما، وعرفوا الأدب تعريفا فَرْقِياًّ، وأنه يتكون من الفروق التي بينه وبين نظم الواقع، وأن علمه أو دراسته هي مجموعة من الفروق، فهي في الشعر مثلا الفروق التي يتضمنها التعارض بين اللغة العادية واللغة الشعرية، سيما أن الشعر في طبيعته يعمل على "التغريب"، أي رفع الألفة التي بيننا وبين الأشياء.

يعرف شكلوفسكي التغريب بأنه نزع اللفة مع الأشياء التي أصبحت معتادة، أي هو مضاد لما هو معتاد، فالمشي فعالية عادية وآلية، لكن الرقص مشي محسوس نتحسسه في دقته، وكذلك هي الحال في الشعر، إذ في اللغة العادية تتلفظ الكلمة بشكل عادي، في حين هي في الشعر محرفة...

إن اللغة اليومية تتحول في الشعر لغة غريبة كما أن الأصوات تبلغ فيها درجة عالية من البروز، لا يختلف الكلام الشعري عن الكلام العادي بمجرد انه يتضمن مفردات، وبنيات لا نجدها في اللغة العادية، وإنما أيضا لأن الأدوات الشكلية التي للشعر كالايقاع والقافية تؤثر في الكلمات فيتجدد إدراكنا الحسي لها ولبنيتها الصوتية ...

" لقد فرّق الشكلانيون بشدّة بين شكلين للغة: 1) لغة الحياة العملية، أو ما سمّوه اللغة النثرية، وهي تتضمن لغة الحديث، لغة العلم اليومية؛ 2) لغة الأدب، أو اللغة الشعرية. وإذا كان للغة النثرية وظيفة تواصلية في الأساس، وهي أقرب ما تكون إلى الصيغ الآلية، إلى الثابت، إلى أنساق متكررة من التعابير، فإن وظيفة اللغة الشعرية هي انتزاع المادة أو الظاهرة من مجال آلية التلقي، اعتمادا على قانون التغريب"

**ب/ التصدير والعامل المهيمن:** يرى تينيانوف أن النص الأدبي يتكون من عناصر ذات علاقة متبادلة، وتفاعل متبادل فيما بينها، فهناك "عوامل مهيمنة"، و"عوامل عادية" في كل نص أدبي، وان النص الأدبي يكتسب وظيفته الأدبية من خلال العامل المهيمن فيه فقط، وهو عامل التصدير. وبهذا نقل تينيانوف الفرقية بين التغريب والاعتيادية إلى داخل العمل الأدبي.

**6. تقييم عام:**

لقد تعرض الشكلانيون لانتقادات كثيرة في روسيا منذ بدايات نشاطهم، كما رأينا. إذ يلفت فيكتور إيرلخ النظر إلى ما يسميه بـ" الفقر الفلسفي"، وإلى "اهتمام أحادي الجانب بالنماذج البنائيةعلى حساب "الحوافز" النفسية والفلسفية". بالإضافة إلى ذلك يؤخذ على الشكلانيين :

1. اهمال الطبيعة الفردية في الإبداع؛ حيث أصبح المبدع في نظرهم مجرد أداة يتطور بواسطتها الأدب، فالشاعر مثلا مجرد عامل يرتب المادة التي يصادف وجودها بين يديه، وليس فردا عبقريا وصاحب رأي.
2. الاهتمام بالأدبية على حساب خصوصية النصوص المفردة.

2) افتقار الشكلانية إلى نظرية جمالية دقيقة للبحث في كيفية وجود العمل الأدبي أو كيفية وجود نقد معياري؛

3) كون تنظيرهم سلسلة من الرؤى التقنية منعزلة عن المؤشرات المنهجية، لا تشكل نظرية أدبية حقا. غير أنهم، في نظره، "أنجزوا باستحقاق بعضا من مظاهرها الأكثر أهمية".

ويستشهد إيرلخ بالناقد إ.ن. يفيمف الذي يسميه "أحد الخصوم الشرفاء" للشكلانية والذي قال عنها، منذ أواخر العشرينيات : "إنها شددت بقوة على المشاكل الأساسية للدراسة الأدبية. شددت قبل كل شيء على خصوصيات موضوعها، حيث غيرت تصورنا للعمل الأدبي وحللت أجزاءه المكوّنة، وفتحت مجالات جديدة للبحث وأغنت إغناء واسعا معرفتنا للتقنيات الأدبية ولتنظيرنا حول الأدب"، وحوّلت الشعرية من حقل انطباعات سائبة "إلى موضوع للتحليل العلمي، وإلى مشكلة ملموسة لعلم الأدب"

وأهم ما قدمته الشكلانية للنقد الأدبي هو تصحيح العلاقة المشوهة بين الأدب والواقع، أو الفن والايديولوجيا، والدعوة إلى الاهتمام أساسا بالأدب في خصوصيته المستقلة.

**أهم المراجع المعتمدة:**

د. عبد القادر باعيسى: في مناهج القراءة النقدية الحديثة.

د. نوفل نيوف: الشكلانية الروسية، الآداب العالمية، العدد رقم 143 / 1 يوليو، 2010.

عدنان بن ذريل: النص والأسلوبية بين النظرية والتطبيق.